دير سانت كاترين

بطور سينا [1]

للمستر رابينو

قنصل انكلترا الجنرال في مصر

١ — تاريخ الدير — الرهبان

لشبه جزيرة طورسينا شأن كبير في تاريخ العالم الديني . وسنستثني من بحثنا هذا عبادة القمر ونشر لوحات الوصايا العشر ، فان هذين الموضوعين كانا محل دراسات عدة

كان الطريق الذي يربط فلسطين بمصر يخترق الجزء الشمالي من شبه الجزيرة . اما الجزء الجنوبي فقد كان مشهوراً بمناجم الفيروز على الخصوص . وهو اقليم مجدب جبلي ولاسيما في الجنوب حيث توجد قمم سربال Serbal (٢٠٥٧ م) وجبل موسى (٢٢٤٢ م) وجبل اكاترينا Ekaterini (٢٥٩٧ م) ورأس صفصاف (١٩٩٢ م) . وفي الجزء الجنوبي جبل تبت Tbebet (٢٤٠١م) وجبل ام شوس (٢٥٧٤م) وجبل ام اسود (٢٥٠٨م) . وجميعها من اشد البقاع وعورة

اما جبل موسى فيقال انهُ المكان الذي اصدر الله فيهِ الى موسى الوصايا العشر وان كان بعض الكتاب يرى ان هذا المكان هو رأس صفصاف . واما جبل اكاترينا فهو اكثر الجبال ارتفاعاً في شبه الجزيرة ويقال انهُ هو الذي حملت اليهِ الملائكة جثمان العذراء الشهيدة القديسة كاترين . وقد تلاشت منذ حقبة طويلة من الزمن اشجار الأثل tamaris وحراج النخيل التي كانت تكسو جانباً من وديان طورسينا

اما معابد وادي مغارة وسرابيت Serapit فقد اسهب الكتاب في وصفها . ثم ان في الجبل كتابات كثيرة فرعونية وعلى ذلك فلن نعرض في هذا البحث لاقامة بني اسرائيل في طورسينا ولا لإقامة الاقباط ، فكتابات هؤلاء تكاد تكون موجودة في الوديان في كل مكان ولاسيما في وادي مغطب

والنساك هم الذين أكسبوا هذا الاقليم شهرة طوال العصور المسيحية ، فقد لجأوا اليهِ على أثر اضطهاد الحكام الرومان اياهم ، لما يمتاز بهِ من العزلة والوحشة فأقاموا في جبال شبه الجزيرة

(١) نقلها الى العربية محمد وهبي افندي أحد خريجي معهد الآثار الاسلامية

الجنوبية حيث كانت عيون الماء وبجاريها وكان في الامكان زراعة الحبوب والخضر وأشجار الفواكه

وكان أول ناسك هو القديس اونوفريوس Onophrius الذي التجأ الى مغارة في وادي ليان Leyan جنوبي جبل موسى في بداية القرن الرابع ثم جاء بعده كثير من النساك الذين خلفوا آثاراً في كل مكان وسرعان ما تكونت مراكز في كل منها برج يلجأ اليه النساك ساعة الخطر. ومن هذه الابراج برج بالقرب من ريثو Raithou وقد اندمج فيما بعد في دير القديس يوحنا ، وبرج مهدم في اربين Arbain وكان هناك برج آخر في موضع العليقة المتوقدة[1] Buisson-Ardent على مقربة من المكان الذي قام فيه دير سانت كاترين الحالي ويقال ان الامبراطورة سانت هيلين بنت هذا البرج حوالي سنة ٣٣٧

وان طورسينا لتنبة جداً في تاريخ القديسين والشهداء فقد قتل صيد البجة[2] والعرب كثيراً من النساك وكان الرهبان عرضة دائماً لغارات الاعراب فتوسلوا الى الامبراطور يوستنيانوس ان يبني لهم ديراً يجدون فيه مأمناً فأجاب سؤلهم وحقق رجاءهم واخذ الدير على مدى الزمن يكتسب الشهرة فلما نقل اليه جثمان القديسة كاترين علت شهرته فأمّهُ الحجاج والفرسان المسيحيون منذ البداية حتى القرن الخامس عشر الذي انفصل فيه الرهبان عن روما فصار الدير من ذلك الوقت مقصد بعض الحجاج اللاتين وكثير من الحجاج الارثوذكس وبعض السياح والعلماء . وسيكون هذا الدير موضوع حديثنا في الصفحات الآتية :

لما توسل رجال الدين المشتتون على جبال طورسيناء وفي وديانه الى الامبراطور يوستنيانوس أمر ببناء دير محصن كما قدمنا على قمة الجبل الذي يوجد في سفحه المكان المعروف باسم العليقة المتوقدة أو المشتعلة غير ان مندوب الامبراطور آثر أن يبنيه عند سفح الجبل بالنظر الى الجو وضيق المساحة وانعدام الماء ، ويقال إنهُ قتل بسبب هذه المخالفة

وأرسل الامبراطور في الوقت عينه الى طورسينا مائة من عبيد اقليم ولاخيا Wallachie

---

(١) Buisson-Ardent وأصل هذه التسمية ظهور الله عز وجل لموسى وسط نبات من الشوك المتوقد جاء عنه في الاصحاح الثالث من سفر الخروج : « وأما موسى فكان يرعى غنم يثرون حميه كاهن مديان . فساق الغنم الى وراء البرية وجاء الى جبل الله حوريب . وظهر له ملاك الرب بلهيب نار من وسط عليقة . فنظر واذا العليقة تتوقد بالنار والعليقة لم تكن تحترق فقال موسى أميل الآن لانظر هذا المنظر العظيم . لماذا لا تحترق العليقة . فلما رأى الرب انه مال لينظر ناداه الله من وسط العليقة وقال موسى موسى! فقال هانذا . فقال لا تقترب الى ههنا . اخلع حذاءك من رجليك لان الموضع الذي أنت واقف عليه أرض مقدسة » وقد جاء في القرآن الكريم في سورة طه « وهل أتاك حديث موسى ، اذ رأى ناراً فقال لاهله امكثوا اني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى ، فلما أتيها نودي يا موسى اني أنا ربك فاخلع نعليك انك بالواد المقدس طوى » (٢) ذكر شفيق باشا في كتابه « مذكرات عن زيارة الى دير طورسينا » ص ١١ أن من سلالة صيد البجة البشاريين سكان شرقي أسوان وبلاد النوبة في أيامنا هذه ، وكان صيد البجة يجيئون الى سيناء للنزو من صحراء مصر الشرقية

وعائلة أخرى من مصر مع نسائهم وأولادهم للقيام بحماية الرهبان وخدمة الدير . ولا يزال خلف أولئك العبيد يخدمون الدير وهم مسلمون ويقوم الرهبان باطعامهم

وقد كان البابا غوريغوريوس الكبير (٥٩٢ — ٦٠٤) أحد الذين أحسنوا الى الدير وروى حاج إلى الدير سنة ١٣٤١ أن الرهبان كانوا يحتفلون بذكرى ذلك البابا احتفالاً خاصاً

وقد اعترف الرهبان بسيادة البابا حتى أواسط القرن الخامس عشر ثم اعتنقوا عقيدة فوتيوس Photius الذي انشق على الكنيسة ومع ذلك فقد ظلوا يعشون منهم من جميع أمم التبرعات من البلاد الكاثوليكية والتبرعات السنوية التي كان يجود بها لويس الحادي عشر ملك فرنسا وإزابلا ملكة أسبانيا (١٤٨١ — ١٥٠٤) والامبراطور كسيليان الأول (١٤٩٣ — ١٥١٧)

وقد قاسى الدير كثيراً على أيدي العرب الذين لم ترددهم الفرمانات السلطانية العديدة التي أوجبت عدم التعرض للأرواح والاموال بسوء، فاضطر الرهبان مرات عديدة الى أن يهجروه ويلتجئوا الى الطور Tor أو إلى مصر. ولذا كان الدير خالياً عند زيارة جان توخر Jean Tucher من مدينة نورمبرج سنة ١٤٧٩ . وطرد العرب الرهبان من الدير سنة ١٥١٦ اثناء الحرب بين الاتراك والمماليك . وكان الدير مغلقاً مدة أربع سنوات أو خمس في منتصف القرن السادس عشر ثم كان مغلقاً ايضاً في سنة ١٥٦٥ وفي سنة ١٦٠٠، كما كان مغلقاً كذلك في سنة ١٦١٨ وهي السنة التي انتخب فيها ايوزاف Iosaph مطراناً في طورسينا وأمر بفتحه ، غير أنهُ اغلق ثانية بعد اربع عشرة سنة وكذلك كان بين سنتي ١٦٥٦ و ١٦٦٠ وبين سنتي ١٧٣٩ و ١٧٣٣ وأثناء الحملة الفرنسية على مصر حتى أمر كليبر بناء السور. واختلف عدد الرهبان كثيراً باختلاف الازمنة ففي سنة ١٠٠٠ كان مائتين وفي سنة ١٣٣٦ وجد فيه بيتر رودلف Peter-Rudolf وأصله من مدينة زوخن نيفاً وار بعمائة ، مع مطرانهم وعدداً من الاحباز. وروى فريسكوبالدي Prescobaldi ورفقاؤه أنهُ كان بالدير سنة ١٣٨٤ مائتا راهب منهم ١٥٠ بالدير الكبير والبقية موزعون على كنائس الجبل العشرة . وكانوا ٢٨ سنة ١٣٩٣ وفي سنة ١٣٩٥ وجد نيقولا دي مارتوني Nicolas de Marton ٢٤٠ راهباً ، غير ان بيرو طافور Pero Tafur لم يجد سنة ١٤٣٥ الا ٥٠ او ٦٠ راهباً وكان الدير يجتاز حينئذٍ ازمة شديدة . اما فيلكس فابر Félix Fabre الذي زار الدير ١٤٩٤ فلم ير الا ثلاثين راهباً ويظهر انهُ كان بالدير في القرن السابع عشر بين الستين والثمانين راهباً

ورعاكن لتأسيس ادبرة عدة بالقسطنطينية وقبرص وكريت وبلغراد وبوخارست وجاسي وانشا تأثير كبير في عدد رجال الدين المقيمين بسانت كاترين فلم يعد هناك مئات من الرهبان كما كان يجد زوار العصر الوسيط. ففي سنة ١٧٠٠ لم يجد بونسيه Poncet غير خمسين ومثله فولني Volney عند زيارته للدير سنة ١٧٩٣ . ثم كان العدد ٢٨ سنة ١٨٠٠ منهم ستة من رجال الدين

دير سانت كاترين بطورسينا

واثنان وعشرون من الرهبان. ثم كان ٢٣ سنة ١٨١٦ عند زيارة بوركهاردت Burchardt ولم يزدد الرهبان حتى يومنا هذا فقد احصى ولستد Wellsted ٢١ راهباً وفون شوبرت Von Schubert ٢٦، ولم يجد روبنسن Robinson غير ٢٠ . ووجد لبسوس Lepsius سنة ١٨٤٥ خمسة وعشرين منهم اربعة قسس وواحد وعشرون راهباً . وأحصى ايبرس Ebers سنة ١٨٧١ ثمانية وعشرين . وكانوا عشرين سنة ١٩٠٥ ولم يزد عددهم من ذلك الحين الا قليلاً وفي دير سانت كاترين عدا المطران خمسة قسوس وشماس واحد وأربعة رهبان مبتدئين وثمانية من خدام الرهبنة غير مترهبين. ومجموع الرهبان المتنين الى الدير ٤٩ والى القارىء بياناً مفصلاً :

محل الاقامة	رؤساء الاساقفة	قسوس	شمامسة	رهبان جدد	خدام من غير المترهبين	الجملة
سنت كاترين بطور سينا	١	٥	١	٤	٨	١٩
فاران Faran					١	١
الطور		١	١	١	٢	٥
السويس			١			١
القاهرة		٤		١	١	٦
اسمره		١				١
طرابلس الشام		١				١
قبرص — كيرينيا Kirinia		٢				٢
— بافوس Paphos		١				١
ريزو كارباسو Rizo Karpasso		١				١
كريت — قندية Candie		٢				٢
— لاكانيه La Canée		٢				٢
مساره Messara			١			١
سبليوتيسا Spileotissa		١				١
زانته Zante		١				١
خيو Chio		١				١
يانينا Janina		١				١
القسطنطينية		١				١
اثينا			١			١
الجملة	١	٣٥	٥	٦	١٢	٤٩

ويقيم المطران بالدير الا اذا كان وجوده بالقاهرة ضرورياً فيما يتعلق بأعمال الطائفة وهو يدير الدير يساعده المجمع المقدس Saint Synaxis الذي يتكون من النائب وأمين الصندوق وأمين الخازن

وإذا غيب المطران حل محله النائب والرهبان اجمعين — ماعدا المبتدئين — حق انتخاب الرئيس ويجري الانتخاب بدير سانت كاترين بطورسينا ويقوم النائبون بتوكيل من ينوب عنهم في الانتخاب . وتنقل الرهبان من وظيفة الى اخرى او من دير الى آخر من اختصاص للمطران والمجمع المقدس . وتستطيع الطائفة ان تقرر عزل المطران غير انه يمكنه ان يستأنف قراراها امام بطريرك بيت المقدس

***

واسقفية طورسينا كنيسة مستقلة استقلالاً ذاتيًا وفي مرتبة اسقفيات كريت وتشكوسلوفكيا واستونيا وفنلندا . المطران يرسمهُ بطريرك بيت المقدس . وهذا دليل على أن دير طورسينا تابع لكنيسة بيت المقدس . وكانت الطائفة قبل الحرب على جانب كبير من الغنى فكانت تملك ريعاً قدره ثمانية آلاف من الجنيهات المصرية غير ان ممتلكاتها في رومانيا قد صودرت وكان ضمنها سيتايا Siuaia وهو قصر المصيف الملكي في وقتنا الحاضر . وكذلك صادرت رومانيا املاكها في بسارابيا عند ماضم هذا الاقليم الى رومانيا . وبيعت املاكها في الصرب اثناء الحرب . كما ان البلدة ذات الايراد التي انشأتها في خيف Chiv بثمن بعض ممتلكاتها الزراعية بالقرب من هذه البلدة صودرت قبل ان يتمكن الدير من استغلالها اي استغلال مع انها كلفتهُ ستين الفاً من الجنيهات . وكذلك ممتلكاتها في تفليس . ثم ان الحكومة التركية وضعت يدها على دير ازمير ولم يستطع الدير حتى اليوم ان يسترده فلم يبق للدير بعد ذلك من ممتلكات الاّ في قبرص وكريت وايرادها ضئيل . ثم ممتلكاتها في القاهرة وحداقتها وصوامعها في شبه جزيرة طورسينا

والتبرعات التي كان الدير يجمعها في البلاد المسيحية ذات المذهب الارثوذكسي تضاءلت فلم تعد تجدي واضطر الدير الى اهمالها

***

والرهبان يتبعون القواعد التي وضعها القديس يازيل ويحيون حياة الزهد والتقشف فلا يأكلون اللحم الاّ نادراً ولا يتناولونه في غرفة الطعام بتاتاً ولو كان اليوم عيد الفصح فانهم فيه يتغدون معكاً ثم يخرجون مساء الى الحديقة وهناك فقط يأكلون اللحم

ويتقاضى الراهب كل شهر لتراً من النبراب وجنيهين مصريين . ويستيقظ الرهبان جميعاً في الساعة الثانية والنصف صباحاً إذ يدق جرس صغير ثلاثاً وثلاثين دقة (سن المسيح) ثم يدق ناقوس كبير بعد خمس دقائق ٣٣ دقة مثلها ويرتل الرهبان في الكنيسة صلاة السحر في الساعة الرابعة ويدعون الى هذه الصلاة بالسيماندر (١)

ثم في الفترة بين عيد الفصح وعيد الصعود يقام القداس الكبير كل يوم في البازيليكا (الكاتدرائية) او في الكنائس الصغرى والقداس يقام في البازيليكا لمناسبة الاعياد الكبيرة وهي عيد الفصح وعيد سانت كاترين وعيد التجلي . اما في غير هذه الاعياد فيقام القداس الخافت أيام الآحاد والاربعاء والسبت . وفي الاعياد الصغرى يقام القداس الصغرى . ويقام القداس ايام الاربعاء في كنيسة العذراء المقدسة الواقعة اسفل المكتبة . وأيام السبت يقام في كنيسة الملفة المشتملة ، الموهوبة الى العذراء

اما يوم الاموات وايام السبت الخاصة بالصيام الكبير فيقوم قسيس بالقداس في المقبرة في كنيسة سان تريفون Saint Tryphon

ويتناول الرهبان بعد انتهاء القداس فنجاناً من القهوة التركية ثم يتوجهون الى أعمالهم . ويدعون جميعاً بالسيماندر السالف الذكر الى الفطور معاً في الساعة العاشرة والنصف وفي الساعة الثالثة بعد الظهر يدق الناقوس ثلاث دقات إيذاناً بصلاة الغروب ، ثم بعد الصلاة يقرع السيماندر ثلاث مرات أن قد حان موعد تناول العشاء فيتناوله الرهبان في حجراتهم

ويقرع السيماندر الحديدي بدل الخشبي في ايام السبت . اما ايام الاعياد فتدق ثمانية اجراس صغيرة إيذاناً ببدء القداس ، وهي الاجراس التي كانت روسيا قد اهدتها الى الدير منذ خمسين سنة تقريباً

***

ويحدثنا الشماس افرم Ephrem (١٦٥٠ م) عن بلاطة من الجرانيت تخرج اصواتاً معدنية مؤثرة جداً وكانت تقرع ايام الحداد (٢) ، واليوم يقرع الناقوس في هذه الاحوال . وحساب الزمن عند الرهبان يبدأ من غروب الشمس

[للمقال تتمة تتناول وصف الطريق من القاهرة الى الدير ثم وصف الدير ورسومه وشعائره وصوره وتخطيطه]

(١) السيماندر Symandre لوح من الخشب الصلب معلق من بنائيه وتصدر عنه اصوات منسجمة متلائمة حين يقرع بالمدق

(٢) B. Meistermann. Guide du Ni. au Jourdain par le Sinai et Pétra طبعة باريس ١٩٠٩ ص ١٣٢

صهٍ قبل طارق

فتحنا احد مجلدات المقتطف من دون تخيُّر فاذا هو المجلد الثاني والثلاثون الصادر سنة ١٩٠٧ فقلَّبنا صفحاته فاستوقفتنا صورة جبل طارق لكثرة ما يدور حواليه من شؤون سياسية وحربية دولية في هذه الايام فراجعنا ما كتب عنهُ فاذا هو فصل من رحلة للمرحوم الدكتور صرُّوف واذا مرآى الحصن واقترانهِ باسم طارق بن زياد قد حرَّك الخاطر الشعري فقال القصيدة التالية. ومن غرائب الاتفاق انها منشورة في مقتطف اكتوبر سنة ١٩٠٧ اي من ثلاثين سنة تماماً

ربة الشعر هل أتاكِ حديثٌ ... عن كماة الاعراب من قبل طارقْ
عن غزاة في القفر شبُّوا زمانَ الرو ... مُ والفرسُ يملكون المشارقْ
عرشَ كسرى ومصر والشام ثلّوا ... وجروا في الفتوح جريَ السوابقْ
حاول الروم صدَّهم فتصدى ... كل من في ولائهم غير صادقْ
من يهودٍ وصابئين وقبطٍ ... والنصارى[1] وكل خصمٍ مشاققْ
نصروا العرْب خفيةً وجهاراً ... لم يحاربْ للروم غير الاصادقْ

* * *

شيخ الروم قبل ذاك وجاروا ... هل أتاهم أن ليس للخلق خالقْ
واتاخ الفساد والقرس جاسوا ... بحرهُ خائضين حتى المخانقْ
وإذا الظلم والفساد اقاما ... نصب الحوض من حماة الحقائقْ

* * *

نصر الله أمةً إذ تولى ... امرها العادلون بين الخلائقْ
قام صدّيقها باصدق أمرٍ ... وتلاهُ الفاروق بالعدل فارقْ
وكماة في المكرمات تباروا ... وهم الاسد في صدور الفيالقْ
دوّخوا الارض وطّدوا الملك قاموا ... بفروض الكتاب تحت البارقْ
ثم عزُّوا والملك صار عضوضاً ... فاستكنُّوا كنهم في حدائقْ
وتباروا في البذخ فالظلم فالايغال في ما يعد للملك ماحقْ
شمس عدلٍ ضنّت شعوباً فلما ... كسفت فرّق الشعوب طرائقْ

(١) اي النصارى

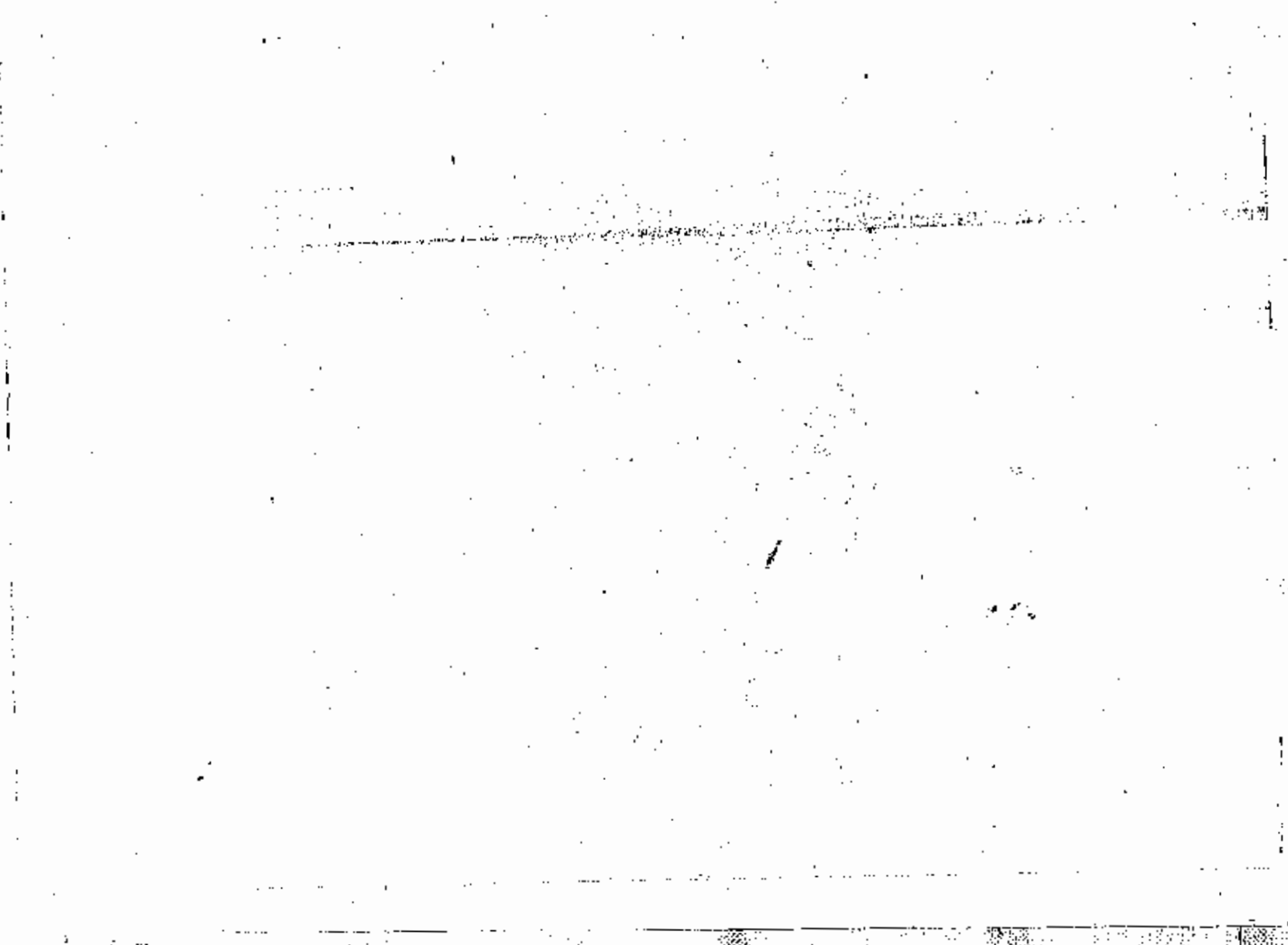

الفيلسوف رنيه ديكارت

René Descartes